نادوا على السطوح!

صرخ العاقل في قومه قائلاً: إذا خفيت الحقائق، تمكّنت الأوهام والسخافات، فاحذروها!
غضّ القوم مستنكرين، وقالو إنه مجنون!
وصاحت الحكمة في بيتها منادية: لا تكتموا الحق وانتم تعلمون.
فعلا صخب المكابرين، الذين لا يتراجعون أبداً عن ترهاتهم وأراتهم الباطلة، لانهم من أبناء الظلمة. فالنور يؤذي عيونهم، وقالوا للحكيم إنه جاهل.
وارتفع صوت الوطنية التي تبني بيتها على أسس الحبّ الصافي، وتدعو ابناءها إلى التعاون الصادق، فشار ثائر الهدامين، والفوا البلبة بين الفعلة الوطنيين، فاعاقوا بناء البيت، وقالوا للوطنيّ انه خائن!
وجاء من يتذرهم بلسان جبران قائلاً: ويل لأمّة كل طائفة فيها أمّة!
فرجموه واتّهموه بالكفر!
وقام فيهم الحرّ منادياً بلسان فولتير: لا أثر لوطن حرّ إلا بمواطنين احرار.
فاتهم النصح، والحقيقة كالمضع تؤلم، وقالوا من كيدهم إنه ثرثار!
وانتصب الحق في الجماعة مردّداً الحديث الشريف: احثوا التراب في وجوه المداحين الاقاكين!
فوقفت الزلفى بينهم وبين الحق، وحجبته عن ابصارهم، واصمت اذانهم عن سماع اقواله، وحرضتهم على الابتعاد عنه، لانه يمشي في الشارع عرياناً، شان الحق مدى العصور، فهزأوا به ساخرين، وقالوا انه بلا حياء!
وكما قال المسيح عند شقّ الفجر، مناشداً تلاميذه بإعلان الحقيقة على السطوح، كذلك نهض باكراً العاقل، والحكيم، والوطني، والنبي، والمرّ، والحقّ، وتضامنوا صارخين بامّتهم: اننا نقول ما يسكت عنه الآخرون ولو جز علينا القول مغرماً.
وأسام هذه الاصوات العالية كانصوات أبواق الميابرة، تمزّقت حجب الأوهام والخرافات، وتوارى الباطل واتباعه في أوكارهم المظلمة، وبرزت الأمّة من خدرها، منسربلة بثوب شفّاف كالحقيقة التي يظنّها الجاهل عارية.
لا تعجب، يا صاحبي، لقوم يؤثرون الأوهام على الحقائق، فامثالهم عاشوا قروناً بين الورى مدى الأزمان، كما علّمتنا التواريخ.
وامثالهم اهتدوا اخراً، والله يهدي من يشاء.
فالضمير له مهما طالب الزمن، يقظة مفاجئة، فإما أن تقتل الإختلاجة الخلال في نفس الإنسان وتنجب، وإما أن يميتها الباطل إلى الأبد، فتظل النفس هالكة، ويموت مع الضمير الميزان، كل شعور وطني نبيل.
فإذا رأيت يا أخي أمثال أصحاب هذه الضمائر الخائنة، فبشّرها بجرأة الؤمن بالحق والوطن، ولا تنس الحكمة في قول شوقي:

قد تفسد المرعى على اخواتها
شاة تشذ من القطيع وتسرق

ولا تنس أن بيت الوطن، يتألف من حجارة كثيرة، فإذا نقص حجر واحد منها، لا يكتمل البناء. فالوطن يحتاج إلى جميع ابنائه، خصوصاً المكابرون الضالون، على مبدأ «عنزة ولو طارت».
ليس من الهينات اجتذاب الضالين إلى الحظيرة، ولكن كل جهد في سبيل الوطن سهل مهما كان شاقاً.
فحبّ الوطن يمهّد كل الصعاب، والإخاء يستسيغ كلّ عذاب، في سبيل اتحاد الأمة.
الأمّة اشبه ما تكون بشجرة تحيا بجذورها، فإذا اعتلّت هذه الجذور، يبست الأغصان، وتساقطت الأوراق، وماتت الشجرة.
والشعوب كالشجر، تحتاج إلى أصول ثابتة تنبت عليها الفروع، وتتغذى من تربة واحدة سالمة لتحيا.
فكذا شعوبنا التي توشك أن تتخاصم في ما بينها على الرغم من الفروق والانتماءات، انها في حاجة إلى الحياة الشرة في قوة، إلى ترك البلبلة حول عروقها، الى تعاون جميع ابنائها لنصرة الحقيقة الساطعة كالشمس في رابعة النهار.
انها في حاجة إلى الجمع لا التفريق، إلى البناء لا الهدم.
ليس عدوّاً للبشر من يفضح عيوبهم، لعنايته بأمرهم، وغيرته عليهم، وإنما العدو هو الذي يسمت عن علم ويترك العيوب تقوّض كيان المجتمع، وتهدم ابراج الوطن.
من له أذنان للسمع، فليسمع في وطنية واعية.

د. جهاد نعمان
استاذ في المعهد العالي للدكتوراه